من أجل نظرية في الإنتاج الفكري

بقلم الدكتور حسن بن عيسى

ان الثورة التقنية Technologique التي هي اهم مميزات النصف الثاني من القرن العشرين ، تستلزم من الاديب العربي ان يعيد النظر في العديد من المفاهيم الراسخة في الاذهان ، وان يؤمن بان التقنية التي نريدها للعالم العربي هي التي توفق بين الانسان المفكر Homo - Sapiens والانسان العامل المنتج Homo - Faber ويطيب لي ان استشهد ببيت لابي الطيب المتنبي ربما يلخص الفكرة التي اعتمد عليها صاحب هذا المقال :

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الحياة كتاب

وهي لعمري صورة رائعة لا يقوى على تصويرها الا فنان مقتدر ، وشاعر كبير من طراز المتنبي : تلك هي صورة الفارس الذي يقطع الفيافي والقفار على صهوة جواده الاصيل ، وصورة القارىء المنصرف الى كتابه ، لا يلتفت الى شيء سواه . فالجواد في هذا البيت رمز للزحف والفتح والعمل .. اما الكتاب فهو رمز للفكر الذي يبدد الظلمات .

ان العرب والمسلمين لم يرتفع لهم شان الا عندما حققوا الانسجام بين الفكر والعمل . وكان ذلك منذ اربعة عشر قرنا ، عندما نزلت الآية الكريمة التي تقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . والعبرة التي نستخلصها من هذه الآيات ، ان استعمال القلم أساس الحضارة ، وان جميع أمم الارض لن يرتفع لها شان الا اذا انتقلت من مرحلة الرواية الى مرحلة التسجيل ، واتخذت الكتاب سلما للازدهار والرقي .

١ ـ المطالعة في المجتمع الحديث .

ظلت المسائل المتعلقة بالقراءة مدة طويلة من الزمان ، من اختصاص رجال التربية وحدهم ، لا ينازعهم فيها منازع . فهم الذين ما فتئوا ، سواء في الكتاتيب ، او في الزوايا ، او في المدارس الحديثة ، يعلمون الاطفال كيف يهجون الحروف وكيف يقرأون .. الا ان الاهتمام بمشكلة القراءة لم يعد في السنوات الاخيرة محصورا في نطاق المدرسة ، بعدما أصبحت المطالعة عنصرا فعالا من عناصر التقدم العلمي ، وسلاحا من اسلحة الثورة الثقافية ، وأداة لا يمكن الاستغناء عنها للنهوض من كبوة التخلف ، واللحاق بركب الانسانية .

ومن جهة اخرى ، فان المطالعة ارتبطت اليوم بمفهوم المردود ، وبذلك اندرجت في اطار التنمية الاقتصادية للبلاد . فالانسان لا بد من ان يطالع بكثرة ، اذا شاء ان يكون من ابناء عصره ، والا ، فانه الركب .. ولكن المطالعة وحدها لا تكفي ، بل لا بد من ان يستفيد الانسان مما يطالع ، وان يضع في حسابه بان الجهود المصروفة في المطالعة ينبغي ان يقابلها مردود معين . ولهذا ، فان القراءة موضوع لا يهم رجال التربية والتعليم وحدهم ، بل يهم كذلك الكاتب الذي سوف يؤول به الامر الى اليأس والقنوط اذا لم يصادف من القراء حدا ادنى من الاقبال ... ويهم ايضا الناشر الذي لا بد من ان يدخل في حسابه ميول القراء ، واحتياجات البلاد ، وان يفكر في ازدهار مؤسسته وفي الحصول على قسط قليل او كثير من الربح ... ويهم كذلك مديري الشركات العامة والخاصة ، ورؤساء المصالح في الادارات والمؤسسات ، لان هؤلاء جميعا يعلمون ان الشعار الذي نادت به التربية الاسلامية وهو « اطلب العلم من المهد الى اللحد » ، هو اساس الازدهار ، وان ما يسمى اليوم في التربية الحديثة بالتربية المستمرة L'éducation permanente هو عماد المعاصرة وركيزة التقدم في هذه الحياة .

٢ ـ تصحيح بعض المفاهيم .

واذا كانت المطالعة بمثل هذه الاهمية لتقدم البلاد ، فانه يجدر بنا ان نصحح بعض المفاهيم التي لا تزال سائدة عندنا ، وبعض الافكار الخاطئة التي تزيف الثقافة وتسمها بميسم السطحية والتفاهة . ويبدو لي ان هناك خلطا بين ما يسميه البعض بالخلق والابداع ، وبين ما نسميه نحن بالانتاج الفكري .

وللاسف الشديد ما تزال الثقافة في بلادنا قائمة من حيث المنطلق ، على أفكار غيبية وعلى معتقدات خرافية لا أساس لها من الصحة . فلا يزال الاديب مثلا يستعمل عبارات توقع في الالتباس ، كالوحي ، والالهام والخلق والابداع ، وهي عبارات توهم القارىء ان الاديب من طينة اخرى غير طينة البشر ، وانه يشرف على هذا العالم الفاني من عليائه ، ويطل على عالم آخر هو عالم الابدية .

ولعل هذا الامر هو الذي دعا بعض الناس الى تشبيه الادباء ، وخاصة منهم الشعراء ، بالانبياء . وهذا ما نستشفه من قول احدهم في رثاء أبي الطيب :

هو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

ولقد يقول البعض : لماذا تحذرنا من ادعاء النبوة في عصرنا ، ونحن نعلم ان سيدنا محمدا هو خاتم الانبياء ؟ فالى هؤلاء اقول بان ادعاء النبوة في عصرنا ، وان لم يكن صريحا ، الا انه يتخذ في مجال

الفكر طرائق قد لا يفطن لها الغافلون . والامثلة على ذلك كثيرة ، منها عبادة الاشخاص ، والطرقية ، والتحيز للاراء والمذاهب من غير تمحيص . وقد اصبحنا نصادف في كل مكان ما يدعو الى هذا المذهب او ذاك ، وعبادة هذا الصنم او ذاك من اصنام الثقافة ، واتباع من يسمونهم أعلام الفكر ، وليس في وطاب بعض اولئك الاعلام سوى الزيف والتضليل .

٣ ـ الاديب مظنة للسوء .

وهكذا فان تعاطي صناعة الادب والفكر مظنة للسوء ، لانها تتعلق بمجال خطير من مجالات الحياة ، وهو : وضع الانسان في الحاضر ، ومصيره في المستقبل . ولذلك فان الاديب قد تخول له نفسه ان يتشبه بالانبياء ، وأن يدعي بأن له صلة بالغيب ، وانه يدرك ببصيرته ما لا يدركه الناس بأبصارهم .

ولا ينبغي ان ننسى ان الكلمة في نظر الناس مقدسة ، ولها أصل الهي ، فلا عجب أن ينسبوا اليها قوة لا تعدلها قوة ، وهي قوة السحر . وتعتقد العامة ان بعض الكلمات يمكن ان تؤثر في قوى الغيب ، فاذا ما نطق بها الانسان ، أو كتبها ، أو وضعها في حرز ، فانها قد تشفي المريض ، او تحفظ من الشر ، او تيسر السبل ، او تزيد المحبة او تحدث الكراهية .

وبما ان الاديب يتعامل بالكلمة ، فانه مظنة للسوء ، لان تلك الكلمة سلاح رهيب يمكن ان يكشف به عن أمور قد تضر ابناء قومه او تنفعهم . ولذلك فهو معرض لان تنزلق به القدم في دروب الفكر الملتوية ، فيتاجر بالكلمة ، ويصبح مشعوذا كسائر الرقاة او كتبة الحروز .

وقد حذر القرآن من هذا الموقف :

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون » (١) .

ما الفرق اذن بين من يدجل على الناس بالحروز ، ومن يفتري على الناس بالقول المزخرف والكلام المنمق ؟.. وهكذا نرى ان تسخير القلم في الافتراء وتزييف الحقائق لا يقل مضرة عن كتابة الحروز ، وان الشعوذة وادعاء النبوة لا تختص بهما الشعوب البدائية ، بل هي ظاهرة ملحوظة في الشعوب المتمدنة ايضا . وأذهب الى أبعد من هذا فاقول بأن التدجيل في مجال الفكر يشكل اليوم خطرا جسيما على مستقبل الثقافة . ولذلك قال الله تعالى في حق هؤلاء المشعوذين :

« والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر انهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون. الا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات» (٢) .

ان الاديب الذي نريده اذن هو شخص عادي ، لا يوحى اليه ، ولا يعلم الغيب ، وليس بملك من الملائكة على أية حال . حتى ولو كانت له في ميادين الفصاحة والبيان ، سنحات ترفعه الى منزلة العظماء .

انه شخص لا يكتفي بتنميق الكلمات ، ورصف العبارات ، بل يعمل « الصالحات » على حد تعبير الآية ، أي يشارك في بناء الوطن ، وينتج كما ينتج غيره من ابناء قومه .

٤ ـ نظرية في الانتاج الفكري .

ان ازدهار الثقافة في بلادنا مرهون بوضع نظرية في الانتاج الفكري ، متجردة من الاعتقادات الغيبية الباطلة ، ومن الخرافات والاوهام التي علقت بالاذهان طوال عهود الانحطاط . وقد يكون من المفيد في هذا المقام ان نلتفت الى ماضينا المجيد ، لكي نستخلص منه بعض الآراء المفيدة لوضع نظرية سليمة في الانتاج الفكري . فقد بين الاسلام ان الاسماء التي هي أدوات الانتاج الفكري انما هي توفيق من عند الله ، وليست ملكا لاحد من الناس . وخير من يمثل هذه النظرية من القدامى ، ابن فارس (توفي عام ٣٩٥ هـ ـ ١٠٠٤ م) ، اذ يقول : « ان لغة العرب توقيف » (٣) . ولقد يتوهم أحدنا ، اذ يجمع الكلمات بعضها مع بعض ، ويرصفها في جمل ، وينظمها في فقرات ، انه يقوم بعملية خلق وابداع . فما أضل مسعاه ! لان المسميات انما هي مخلوقات من عند الله ، وبالتالي ، فان الاسماء هي ايضا مخلوقات من عند الله . ومن ذلك قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » .

ان الاديب لا يبدع شيئا في عمله ، ولا يقوم بالخلق . والدليل على ذلك ان المادة التي يعتمد عليها ، وهي اللغة ، باسمائها وافعالها وحروفها ، وبما تحتوي عليه من فكر وتراث حافل بالقصص والاساطير والقصائد ، تلك اللغة موجودة قبل ان يوجد ، وقبل قيامه بمشروع الكتابة . فكيف يصح حينئذ ان نقول بانه خلاق مبدع ؟ وانما الخلق هو الايجاد من العدم . والاديب لا ينطلق في عمله من نقطة الصفر ، لانه يعتمد دائما على ما خلفه الاولون من تراث . ويضيف الى ذلك التراث شيئا نسميه خلقا ولا ابداعا ، وانما هو انتاج من نوع خاص، نسميه الانتاج الفكري .

واذا ارتضينا لانفسنا نظرية الانتاج هذه ، واطرحنا نهائيا عبارات الوحي والالهام والخلق والابداع وما يختبىء وراءها من مغالطات فادحة ، فاننا نستطيع حينئذ ان نعالج مشكلة الركود الثقافي بشيء من التفاؤل . وهذه النظرية تكاد تكون فيما أعتقد من البديهيات : فاكثر الناس يسلمون بأن خيرات الارض والثروات الطبيعية انما هي من نعم الله على عباده ، وليس لهؤلاء أي دخل في خلقها .. فلماذا لا نفترض كذلك ان اللغة من نعم الله على عباده ، وليس لاي واحد منهم ، مهما أوتي من الفصاحة والبيان ، اي نصيب في الخلق والابداع ، لان الله هو الذي « علم آدم الاسماء كلها » . فاذا كتب الانسان او ألف ، فانه لا يبدع ولا يأتي بما لم تأت به الاوائل ، على حد تعبير المعري (٤) ، بل يعتمد على ما خلفه الاولون من تراث حافل بالقصص والاساطير والقصائد والملاحم وما الى ذلك من فنون البيان (٥) .

٥ ـ اللغة اداة انتاج .

ان اللغة بهذا الاعتبار ، ملك مشاع بين جميع افراد المجتمع ، لانها ، كبقية الثروات الطبيعية ، من نعم الله ، فلا يجوز ان يختص بها قوم دون قوم . وبما ان الثروات الطبيعية مسخرة للانسان ليستثمرها وينتفع بها ويزيد من دخلها عن طريق العمل المنتج ، فكذلك اللغة مسخرة للانسان ليتوصل بها الى قضاء مآربه المادية والمعنوية في هذه الحياة . فاللغة اذن انما هي أداة انتاج ، كسائر الادوات المستعملة في الزراعة والصناعة والتجارة . والانسان اذ يكتب بها أو يؤلف ، انما هو منتج كسائر العمال الآخرين المنتجين .

---

(١) سورة الانعام ـ الآية ١١٢ .

(٢) سورة الشعراء ـ الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٣) ابن فارس « الصاحبي في فقه اللغة العربية » ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣١ .

(٤) اشارة الى قول أبي العلاء المعري :

واني ، وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل

(٥) انظر في هذا الموضوع :

Pierre Macherey : « Pour une théorie de la Production littéraire » Maspero. Paris 1970P. 222 et 223

واذا كانت اللغة اداة انتاج ، وجب ألا يحتكرها قوم يدعون بانهم سدنتها وحماتها . فلكم رأينا هؤلاء يقفون بالمرصاد لكل من ينادي بالتجديد ، ويثور على الاساليب العتيقة التي أكل عليها الدهر وشرب!! بل قد تجد منهم من لا يتردد في رمي هؤلاء « الخارجين عن القانون » بالكفر والمروق . ومتى وصلت المسألة الى هذا الحد ، فان الانتاج يضعف ، وميدان الادب يقفر خوفا من هذه الفئة المحتكرة التي تدعي ان البيان ذهب ، وان اللسان العربي فسد ، وان الاجدر بالادباء ان يلازموا الصمت لركاكة أسلوبهم وضعف لغتهم واختلال تفكيرهم .

وقد حصل الاحتكار في عهد الاستعمار ، عندما استأثرت الخاصة بالثقافة والعلم ، وبقيت العامة من الناس تتخبط في ظلمات الجهل. فالامية لا تزال ـ رغم الاشواط البعيدة التي قطعتها الاقطار العربية في مضمار التقدم ـ لا تزال على رأس المشكلات . ومن البديهي ان انتشار امية ينجم عنه هزال المطبوع من الكتاب ، لقلة القراء . ومن المؤسف حقا ان تعاني الامة العربية التي تأتي في المرتبة الثامنة من حيث تعداد السكان في العالم ، من المؤسف ان تعاني أزمة قراء (٦) .

ولا يخفى على أحد ان هزال كمية المطبوع يؤدي الى ارتفاع كلفة الانتاج ، وبالتالي الى غلاء الكتاب العربي ، مما يزهد القارىء في شرائه . غير ان الامر لا يقف عند هذا الحد ، لان انصراف الكاتب عن التأليف ، والقارىء عن المطالعة ، يؤدي الى نتيجة خطيرة ينبغي ان نحسب لها ألف حساب . وذلك ان رصيد الامة من الافكار يؤول به الامر الى فقر مدقع ، اذ المفروض في هذا الرصيد ان يتجدد في كل جيل حتى لا ينفد . واذا كانت الدول تشعر بالقلق حين ينفد رصيدها من الذهب في البنوك ، فما أجدرها ان تعلن حالة الطوارىء حين ينضب معينها من الافكار !

٦ ـ بين الانتاج الصناعي والانتاج الفكري .

ان الاديب الذي نريده اذن هو الاديب المنتج . ولكن المشكلة ان الاديب كان ـ ولا يزال ـ محتقرا ومستضعفا ، لان الناس يظنون بأنه لا ينتج . ونستعمل كلمة الانتاج هنا بالمعنى المتعارف عليها لدى العامة من الناس . فقد درج المجتمع على أن لا يقيم وزنا لما هو ناتج عن الجهد العضلي . اما الانتاج الفكري فليس فيه كد ولا تعب ، ولا عرق جبين ، لان صاحبه قد يظل في بيته معتكفا ، فلا يدري أحد كم جاهد الفكرة المتأبية ، وكم تحايل على المعنى الشرود ، وكم سهر الليالي حتى أشرق في ذهنه الحل المستعصي . فهو اذن انسان لا يستطيع ان يقوم بأود عيشه ، بل يعيش في كنف غيره ، كما كان الامر في عهد الملوك والامراء ، وكما هو الشأن اليوم في المجتمعات البورجوازية التي لها أدباء يعيشون في ظلها وتحت رحمتها . المشكلة اذن بالنسبة الى الكاتب انه انسان يستهلك منتوجات الحضارة المادية، ولكنه لا ينتج شيئا ينتفع منه المجتمع في الحين ويسد به الحاجة العاجلة . وحتى لو فرضنا انه وضع قلمه تحت تصرف ابناء قومه ، فسوف ينظر المجتمع اليه دائما بشيء من الاحتقار احيانا ، وبشيء من الشفقة احيانا اخرى . وبما ان انتاجه لا يخضع لتقلبات السوق ، خلافا لغيره من مواد الاستهلاك ، ولا يخضع ايضا لقانون العرض والطلب ، كما هو الشأن بالنسبة الى المنتوجات الاخرى ، فان بضاعته بضاعة مزجاة ، وقيمتها تابعة لهوى المصادفة ، فتارة ينال الحظوة المرموقة لدى أحد الامراء ، وتارة يطرد شر طردة من مجلس أحد الاعيان ، وتارة تحدد له نسبة مئوية يتقاضى بموجبها ربحا يسيرا .

والادهى من كل هذا ان الاديب لا يستطيع ان يستهلك بضاعته التي انتجها . « فالاسكافي قد ينتفع من الاحذية التي صنعها ، اذا كانت من قياسه ، والمهندس المعماري قد يسكن في الدار التي بناها . » (٧) اما الاديب ، فليس له بعد الانتاج الا الصبر والانتظار، لان قصيدته او قصته تظل كل منهما في حكم العدم ، اذا بقيت حبرا على ورق ، وسطورا سوداء . ان انتاج الاديب في حاجة الى عملية لاحقة تخرجه من حيز العدم الى حيز الوجود ، وهذه العملية تسمى القراءة .

٧ ـ الانتاج الفكري لا يقيَّم بثمن .

والحقيقة ان الانتاج الفكري لا يمكن تقييمه بثمن ، لان العناصر المركبة له قد لا تظهر قيمتها الا بعد مرور أجيال ، فلا بد من دراسة الانتاج وتمحيصه واعادة النظر فيه المرة تلو المرة ، واثناء ذلك كله يكون الاديب قد فات ومات وأصبح نسيا منسيا . ولذلك فان قيمة انتاجه عندما تحددها دار النشر ، لا يمكن ان تكون الا اعتباطية وتقريبية . كيف السبيل مثلا الى تحديد عوامل الندرة والابتكار والسبق ؟ « ان الاثر الفكري أسمى من أن يكون بضاعة مادية » (٨) . فمواد الاستهلاك مثلا يمكن ان يستعان في صناعتها بالآلات الحديثة التي توفر على العامل كثيرا من الجهود . اما الاديب فلا يزال الى حد اليوم يعتمد في توليده للمعاني ومعاناته للخبرة الفكرية على نفس الاساليب المضنية التي درج عليها الاولون . والانتاج الصناعي ينسج على منوال واحد ، فكل نسخة ، وكل بضاعة ، شبيهة باختها من غير زيادة ولا نقصان . اما في الانتاج الفكري ، فان الفكرة تبعث دائما في ثوب قشيب ، وتظهر بوجه جديد . وكل فكرة فريدة في نوعها . فمن يا ترى يستطيع ان يقدر هذه الامور كلها حق قدرها ؟

ان الاديب في كل هذه الحالات مهضوم الحقوق ، لانه يعلم ان انتاجه سوف يصبح بعد نصف قرن ملكا مشاعا ، وسوف يصير نهبا لدور النشر تستغله كيفما تشاء من غير حسيب ولا رقيب ، بدعوى انه صار من التراث الانساني . وكم من اديب لم يعرف طوال حياته سوى البؤس والشقاء ، حتى اذا مات ، تحولت بضاعته الكاسدة في حياته ، الى كنز لا يفنى بالنسبة الى من يلبس مسوح الثقافة ويدعي انه نذر نفسه لخدمتها وان همه الوحيد هو احياء التراث !

بطبيعة الحال ، قد تجد من الادباء من يعزي نفسه ، معتقدا انه يكتب للمستقبل لا للحاضر ، وان الاجيال اللاحقة سوف تعرف قدره وتمجد ذكره ، فينسيه ذلك ما يلاقيه من حرمان ، ويصادفه من اعراض على يد ابناء قومه المعاصرين له .. ولكن هذا العزاء للاسف الشديد لا يسمن ولا يغني من جوع .

٨ ـ هل يعيش الاديب على حساب المجتمع ؟

ما من شك اذن ان نشاط الاديب لا يفيد المجتمع في القريب العاجل ، وان بضاعته لا تستهلك في الحين وان نفعه قد لا يظهر الا على المدى البعيد . ولكن ، أيصح بعد هذا ، ان نقول بان الاديب يعيش على حساب المجتمع ، وانه ليس من العمال المنتجين ؟

---

(٦) جاء في كتاب نشرته اليونسكو ان عدد السكان في العالم العربي يبلغ ١١٧،٢٧١،٠٠٠ عام ١٩٦٨ ، وان عدد المنخرطين في المدارس والمعاهد يبلغ ١٤،٣٩٦،٠٠٠ منهم ٤٤،٨٨٣،٠٠٠ من البنات . راجع : Apprendre à etre. - UNESCO Fayard 1972 pp. 315 - 317 et 320.

(٧) انظر في هذا الموضوع :
J. P. Sartre : « Qu'est-ce-que la l'ettérature ? »
Gallimard - Paris 1948, P. 52 et 53.

(٨) راجع مقال الاستاذ مصطفى الفارسي بعنوان « البلاد العربية وحقوق التأليف » في مجلة « الآداب » بيروت ، العدد الاول ١٩٧٢ ، كذلك في مجلة الفكر ، تونس ، العدد الرابع ، جانفي (تموز) ١٩٧٢ .

كلا ! لان الكتابة في حد ذاتها تعتبر عملا ، بل تعتبر دعوة الى العمل النافع للمجتمع . ان عمل الاديب يبدا حين يشعر بان لديه كلمة تستحق ان تقال وان تنقل الى الغير مهما كلفه ذلك من تضحية . وهو اذ يتصدى لعمله ، يتخذ مسؤولية عظمى تجاه ابناء قومه وتجاه الاجيال اللاحقة : انه يتعهد بالكشف عن الواقع كما يشاهده ، بقصد تغيير ذلك الواقع ، وتجاوز الحاضر لبناء المستقبل . وهو لا يكتفي بالوصف وتسمية الاشياء باسمائها ، بل يعمل فكره في شؤون الحياة ، ويحلل ويقارن ويدعو بني قومه ، ولو عن طريق التورية والكناية ، الى الحوار والنقاش والاصلاح والتغيير .

٩ ـ انقطاع الصلة بين الكاتب والقارىء .

ان مشكلة المشاكل ان القراء اصبحوا اليوم مشغولين عن مطالعة ما ينتجه الكاتب . فالبعض منهم يقضي وقته في محو الامية عن نفسه وعن ذويه ممن حرمهم الاستعمار من نور العلم . والبعض الآخر منصرف لتدارك ما فات ، وملء الثغرات المتقطعة التي لم تتواصل على منوال واحد في زمن الاحتلال ... والبعض الآخر تراه مكبا على وجهه ليل نهار ، يحاول ان يستوعب ما يجد في عالم الابتكار من معلومات قد تفيده في مهنته او في ميدان تخصصه .. وحتى متخرجي الكليات ينقطع اكثرهم عن المطالعة بعد نيلهم الشهادة الجامعية . أضف الى ذلك كله ان الحياة أصبحت شديدة التعقد في كبريات المدن ، وان الفرد يجد نفسه مرهقا بالعمل الممل ، والمواصلات المتعبة ، والضجيج المهلك ، والجو الملوث بالدخان ، فاذا وصل الى بيته مكدودا ، فان مشاهدة التلفزة او الاستماع الى الاذاعة ، او قراءة الصحيفة ، ادعى الى الراحة ، واقل اجهادا للنفس من مطالعة الكتاب .

ان انقطاع الصلة بين الاديب والقارىء ظاهرة خطيرة لا بد ان يحسب لها حساب ، فلقد أتيح لي عشرات المرات ان اسال المترشحين للدخول الى المعاهد العليا عن مطالعاتهم ، والجواب الذي اسمعه في اكثر الاحيان ممن يشتغل منهم موظفا ان عمله المرهق لا يسمح له بالمطالعة ، وانه بالتالي لا يتذكر عنوان أي كتاب طالعه في الاعوام الاخيرة . اما الطلبة ، فجوابهم ان البرامج الدراسية تستغرق كل وقتهم ، فلا مجال للتفكير في المطالعة ، واذا صادف ان احدهم قد تصفح كتابا ، فانه قلما يتذكر اسم المؤلف . ويخيل اليّ ان المؤلف أصبح بالنسبة الى جمهور القراء شيئا ثانويا ، وان الاهم ليس هو المنتج بل الانتاج ، فلا حاجة اذن لتذكر اسم المؤلف . ومما يدل على ان الكاتب اصبح في المرتبة الثانية ، ان جمهور المتفرجين في قاعة السينما يهتم اولا بمعرفة اسماء الابطال ، واسم المخرج ، ولكنه قلما يلتفت الى اسم واضع القصة (٩) .

١٠ ـ التسرب في مجال الانتاج الفكري .

على ان انقطاع الصلة بين الكاتب والقارىء قد تترتب عليه نتيجة تشكل خطرا جسيما على مستقبل الثقافة ، ونعني بذلك ما يسميه البعض بالتسرب Déperdition في مجال الانتاج الفكري . والمقصود بالتسرب هنا هو انصراف الكاتب عن الانتاج ، على غرار تسرب التلميذ من المدرسة وانفصاله عنها وضياع الجهود والاموال التي بذلتها الدولة في سبيل تعليمه . ولا شك ان انصراف الكاتب عن الانتاج يعتبر خسارة عظمى حتى ولو استخدمته الدولة في مجال آخر، كالتعليم او الادارة ، لان مكانه في عالم الفكر والثقافة سيظل شاغرا باعتزاله الكتابة والتاليف . اما المنصب الذي صار يحتله في ميدان التعليم والادارة ، فما اكثر المترشحين له !

على ان الكاتب الذي « يتسرب » الى الادارة او التعليم ، تظل نفسه مع ذلك عالقة بدنيا الادب والفكر ، لان الانسان مهما تقلبت به الاحوال ، لا يستطيع ان يتخلص من وشائج الحب الاول . ومتى عاوده الشوق الى « بنات فكره » كما يقول العرب ، فانه لا يستطيع ان يغالب الشوق . ولذلك فانه قد يطالعنا بين الحين والآخر بقصيدة او بقصة قصيرة ، او بمسرحية نتلمس فيها بصيصا من موهبة اصيلة ، واشراقة من عبقرية مدفونة بين جدران المكتب . والحقيقة ان الذين نذروا انفسهم للكتابة وحدها في العالم العربي نادرون ، ولذلك فان اكثرهم يتعاطى مهنة ما ، وينتج بين الحين والآخر ما تجود به القريحة .

وليس لهذه الطريقة من عيب سوى ان الانتاج قد لا يكون له من الرصانة والاتقان ما يتوفر مثله عندما يتفرغ الكاتب تماما لهذا النوع من النشاط الفكري . ومن هنا الضحل في الانتاج ، والسطحية في البحث ، وعدم الاستمرار في الجهد ، والتواني في العمل .

وهكذا نجد ان التسرب في مجال الانتاج الفكري يتخذ اربع صور :

اولا : التسرب الجزئي . وهذا ما نجده عند من يحاول الجمع بين الوظيفة والانتاج الفكري ، فيعيش مشتت الذهن ، موزع الامكانيات، لا يفيد ولا يستفيد .

ثانيا : التسرب الكلي . ونجده عند من يتخلى نهائيا عن الانتاج الفكري ، ويبحث عن عمل آخر يقوم بأود العيش ، فلا يملك الا ان يقول ما قاله الشاعر متذمرا من بني قومه الذين جهلوا قدره :

أضاعوني ، وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثانيا : التسرب الكلي . ونجده عند من يتخلى نهائيا عن الانتاج قسم كبير منه يكتب في بلادنا باللغة الاجنبية ، ولهذا فهو معرض للضياع بالنسبة الى حضارتنا ، وللتسرب الى الحضارات الاخرى . والحقيقة ان الانتاج الفكري لا يندرج في اطار الحضارة الا اذا صيغ بلغة البلاد . فهل يعقل ان نترك نتاج عقولنا ، على ندرته ، يفلت من ايدينا ، فتغني الثقافات الاجنبية بجهود ابنائنا ، ونحرم ثقافتنا القومية من كنوز ثمينة ؟ ويمكن تصحيح هذا الوضع اما بالتعريب العاجل او بتقوية جهاز الترجمة .

رابعا : التسرب عن طريق ما يعرف بتهريب العقول والامخاخ ، او هجرة الكفاءات ، وذلك ان التعاون في المجال الفكري بين الدول ، وتكوين الاطارات في الخارج ، رغم النتائج الايجابية التي أسفر عنها، الا انهما يخلوان من جوانب سلبية . ولكي ندرك العواقب الوخيمة المترتبة على هجرة الامخاخ ، أستشهد بالمثال الآتي : « لقد تبين بالحسابات ان تكوين المهندس المحصل على الدبلوم يكلف الدولة في بريطانيا ٦٠٠٠ جنيه استرليني . فاذا هاجر ، فان الخسارة التي تصيب الاقتصاد البريطاني يمكن تقديرها بثلاثين الف جنيه استرليني، وهي القيمة الحقيقية لكفاءته المستثمرة في مجال العمل . اما قيمة كفاءته بالنسبة الى الاقتصاد الاميركي الذي سوف يستفيد من خبرته ،

(٩) راجع في هذا الموضوع :
J. P. SARTRE : Qu'est-ce que la littérature ?
op . cité , P. 294 .

فتقدر بثمانية وسبعين الفا من الجنيهات الاسترلينية » (١٠) .

ومن حسن الحظ ان هذه المشكلة قائمة في بعض البلدان الصناعية، ولم تتخذ الى حد اليوم شكلا خطيرا في الاقطار النامية .

وتفاديا لهذه الامور كلها ، فمن حق كل من يعمل في مجال الفكر ان يطالب الدولة بتحديد وضعيته تحديدا واضحا ، واعتباره عاملا منتجا كغيره من العمال الذين يساهمون في تشييد البلاد . ولكن ، من حق الدولة ان تطالبه من جهتها باداء عمله والاخلاص لمهنته وخدمة الثقافة والعلم بكل نزاهة .

ويقول الدكتور احمد طالب الابراهيمي ، وزير الاعلام والثقافة بالجزائر ، بخصوص هذه النقطة :

« هناك شرطان اساسيان للخروج من الركود الثقافي ، وهما : التشجيع من طرف الدولة ، وايمان الاديب او الفنان بمبادىء الثورة. واذا توفر الايمان ، فان روضة الادب لا يمكن ان تقفر ، وان ميدان الفن لا يمكن ان يجدب » (١١) .

* * *

وبعد

فان تحديثات العصر ، ومقتضيات الثورة التقانية المدهشة التي يشهدها القرن العشرون ، تفرض علينا اليوم ان نعنى عناية خاصة بالجانب الفكري ، وان نقيمه على أسس سليمة ، وان نحقق التوازن بينه وبين الجوانب الاخرى التي حظيت الى حد اليوم باهتمام المسؤولين . وما دامت الفلسفة التي خلفها لنا السلف الصالح هي « فلسفة العمل » ، فانه يتحتم علينا اليوم ان نحقق الانسجام بين الفكر والعمل ، وان يكون المعيار الوحيد للموازنة بينهما وتقديم احدهما على الآخر ، هو المردود والانتاج . وبذلك يتعاون رجال الفكر والفلاحون والعمال والتقنيون وذوو المهن الحرة ، في تشييد صرح هذه الامة .

الجزائر — حنفي بن عيسى

---

(١٠) راجع في هذا الموضوع كتاب :
Voir : « Apprendre à être » op cité p; p 277

(١١) انظر مقال الدكتور احمد طالب الابراهيمي : « التجربة الجزائرية في الثورة الثقافية » مجلة الثقافة ـ الجزائر ، السنة ٢ ، العدد ٨ ـ ٩ .

دار الآداب تقدم

ماريو بوزو

رواية

العرّاب

The Godfather

« العرّاب » The Godfather هو الرواية التي سجلت منذ صدورها في السنة الماضية اكبر رقم في التوزيع عرفته اية رواية عالمية حتى اليوم . فهي ماتزال تباع بالملايين في جميع انحاء العالم بعد ان ترجمت الى معظم اللغات . وقد اقتبس منها حديثا فيلم ضخم يعرض الآن في كثير من دور السينما في العالم ويشهد اقبالا فاق الاقبال على اشهر فيلمين عالميين هما « ذهب مع الريح » و « صوت الموسيقى » .

ولكن من يقرأ الرواية يلمس الفرق الكبير بينها وبين الفيلم الذي يمكن اعتباره صورة مشوهة عنها . لان الرواية التي كتبها ماريو بوزو اجمل واغنى بالاحداث واعمق بالتحليل من الفيلم . وبالرغم من ان هذه الرواية تشد القارىء اليها وتتركه مذهولا ، فانها تعطي اصدق صورة لتحلل المجتمع الاميركي الذي يخضع ، حتى اعلى مستوى فيه ، لنفوذ عصابات « المافيا » ، هذه العصابات التي يمثل دون كورليون « العراب » رأسا من رؤوسها الخطيرة ويمثل اولاده فيها ادوار القتل والاجرام والجنس والوحشية ...

ان « العرّاب » ادانة للمجتمع الاميركي وللاجرام الراسمالي الذي يقوم عليه والذي يخلق هذه الطبقة من « المافيا » ذات النفوذ الخطير الممتد الى النقابات ومجلس الشيوخ وسائر السلطات التي تشد خيوط الحياة الاميركية .

وبراعة المؤلف تقوم على تصوير الجريمة تحت مظهر الاحترام والوقار . ووراء عنوان « العرّاب » البريء ، يجد القارىء خمسمئة صفحة محشوة بالديناميت ...

الثمن ٨٥٠ ق. ل

صدر حديثا